عندما لفظ شوقي أمير الشعراء قصيدته المشهورة:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

كأنه كان يقصد المعلم جبر ضومط، ويومئ إليه. ويقول للناس: كرموه هو صاحب رسالة.

ولد المعلم جبر في برج صافيتا بعكار عام 1859. كان بعمر السنة ونصف السنة عندما توفي والده ميخائيل بن جبر بن الشيخ ضومط بن الشيخ حنا الدبلان، فتعهدته والدته كاترين ابنة الخوري دانيال الخوري من أسرة تدعى الانتساب الى يوحنا الدمشقي.

تلقى دروسه الأولى في مدرسة القرية. ولما أسس المرسلون الأميركان مدرستهم في صافيتا سنة 1865 كان جبر أول تلاميذها. فأحيطت به عناية خاصة بسبب الصدافة التي كانت تربط والدته بشقيقة مدير المدرسة آنذاك خليل زغرب.

خمس سنوات قضاها جبر في مدرسة صافيتا، أنهى خلالها المرحلة الأولى من دراسته، وكان فيها مميزاً بين رفاقه الذين شهدوا له بالذكاء وقوة التحليل، وسرعة الاستيعاب. بعدها قررت والدته ولأسباب مادية، أن ترسله الى حمص لتعلّم إحدى الصناعات اليدوية، ولكن الدكتور جسب (وهو أحد المرسلين الأميركان) رفض ذلك بعد أن اطلع على علاماته، وطلب من والدته، أن تعده للذهاب الى مدرسة عبيه لاستكمال دروسه.

في عبيه

دخل جبر مدرسة عبيه عام 1870 على عهد رئيسها الدكتور سمعان كلهون والأستاذين رزق الله برباري ونعوم مغبغب فدرس فيها سنتين وهي المدة المعينة له في تلك المدرسة، ومن رفاقه فيها غريغورس حداد، (البطريرك فيما بعد)، وغيره من رجال دين ودنيا ظلت تربطه بهم صداقة ومحبة استمرتا مدى العمر.

ومن عبيه انتقل جبر عام 1872 الى الجامعة الأميركية في بيروت ودخل الدائرة العلمية فيها مدة أربع سنوات نال في نهايتها شهادة بكالوريوس علوم.

في جريدة "المحروسة"

وبعد نيله الشهادة انصرف بكليته الى التعليم، المهنة التي أحب والتي استغرقت كل حياته العملية ما عدا سنتين وبعض السنة. قضى الأولى مهتماً في إدارة جريدة "محروسة" في الإسكندرية لسليم نقاش والثانية أمضاها كترجمان في دائرة أركان حرب الحملة الإنكليزية على السودان والمعروفة بحملة غوردون باشا. وكان رفيقه آنذاك جرجي زيدان. ثم عاد مع زيدان الى بيروت يدرس برفقته العبرية والسريانية، ثم سافر وإياه الى انكلترا حيث كان يتردد على مكتبة المتحف البريطاني. ولما عاد علّم في مدرسة كفتين الشهيرة، درّس فيها الفلسفة الطبيعية واللغة العربية.

جبر المعلم

وفي عام 1889 انتدبته الجامعة الأميركية لتدريس العربية خلفاً للأستاذ س

يوسف أفتيموس، فقام بإدارة الدروس العربية وأعباء التعليم والتهذيب ما يزيد على ثلث قرن.

ولا بد من الإشارة الى الفترة التي سبقت وصوله الى مدرسة كفتين، والجامعة الأميركية، وهي الفترة التي علّم فيها في قريته، ثم في حمص وطرابلس وقد وصف هذه الفترة شخصياً في مخطوطة له لم تنشر بعد يقول فيها: عُيّنت معلماً في حمص في تشرين الأول/ اكتوبر سنة 1876. كنت في هذه المدينة أصرف نهاري كله في التعليم وقد زاد عدد تلامذتي حتى لم يعد في المدرسة موطئ قدم لتلميذ. وبلغ عدد التلاميذ فوق الثمانين.. واستمرت بي الحال على هذه المنوال اربعة أشهر وايام. وفي منتصف شباط 1877 دعيت الى مدرسة طرابلس لآخذ محل المرحوم ابراهيم الكفروني وقد كان دعي الى الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأميركية اليوم).

وشق على أهالي حمص أن يترك المعلم جبر مدينتهم فتوجهوا بعريضة الى ـ المرسلين الأميركيين صموئيل جسب وهاردن هذا نصها:

المعروض لسيادتكم أننا قد تأسفنا جداً عندما صدر تلغرافكم لجناب أخينا المعلم جبر ضومط لكي يتوجه الى طرابلس حالاً. وبما أن المعلم المومى إليه قد صيرنا بغاية الممنونية من حين حضوره للآن نظراً لحسن تقواه وغيرته على تعليم تلاميذه واستقامة سيرته وحسن سلوكه ومعاشرته وامتزاجه مع الناس. وبالحقيقة أنه من زمان المعلم خليل المعلوف لحين الآن ما وجدنا معلماً نظير المومي إليه والمدرسة بزمانه قد نجحت نجاحاً عظيماً.

هذه الشهادة من أهالي حمص، أكدت على أن جبر ضومط هو معلم حقيقي، وصاحب رسالة كالتي أشار إليها الملك فيصل الأول حين قال في جمع من الأساتذة: "لو لم أكن ملكاً لكنت معلماً".

إن رغبته في التعليم فاقت عنده كل رغبة. كان همه الأول والأخير إفادة طلابه وتزويدهم بكل ألوان المعرفة والثقافة. هو نفسه يقول في مذكراته: "أصرف كل يوم ساعة بل ساعات أحياناً، أفكر ماذا أعلّم تلامذتي وكيف أعلّمهم وكيف أحسن تهذيبهم".

وقد استطاع جبر أن يقدم لطلابه كل ما يحتاجون إليه سواء في الرياضيات أو الفلسفة الطبيعية أو في اللغة العربية، وقد كان متمكناً من كل هذه المعارف التي تلقاها على أساتذة معروفين مثل أسعد الشرودي، والدكتور صروف، والدكتور كرنيليوس فانديك، وفارس نمر وغيرهم.

يكتب في "المقتطف" والنشرة الأسبوعية

وإلى جانب القيام بواجباته المدرسية، كان جبر يكاتب مجلتي "المقتطف" و"النشرة الأسبوعية"، فينشر المقالات اللغوية والتوجيهية من هذه المقالات النفسية ما أنشأه في "فلسفة اللغة العربية وتطورها"، وجمعت في كتاب أصدرته مطبعة المقتطف والمقطم سنة 1929، وقد قدم له يعقوب صروف بقوله: "فالذين اشتغلوا بقواعد اللغة العربية منذ ألف ومائتي سنة، الى الآن، يعدون بالمئات أو بالآلاف، ولكن قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد، والكسائي وابن جنى، وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو، ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب، وما منهم من بحث من أصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتعاريفها. فإننا صرنا نعلم في هذا العصر أن لغات البشر التي تعد بالألوف كانت في زمن متوغل في القدم واحدة قليلة الكلمات بل الأصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة، ودخل المزج والنح في كلماتها حتى بلغت ما بلغته وهذا شأن العربية، ولكنني لا أعلم أن أحداً أطلق هذا البحث على العربية من أبنائها قبل الأستاذ جبر ضومط.

وجوب تطور اللغة العربية

كان يؤكد باستمرار على وجوب تطور اللغة العربية لتبقى لغة حية وفتية تساير متطلبات العصر.

"إذا سلمنا أن أنمى اللغات وأرقاها ـ والكلام لجبر ـ هي أكثر زيادة لعدد المواليد في ألفاظها وعباراتها، وإذا سلمنا أيضاً ـ ولا بد للعاقل المتأمل من التسليم به ـ إن اللغة الثابتة على ما كانت عليه، إما لغة ميتة محنطة، كالموميا المصرية واللغة العبرانية القديمة، أو هي لغة شاخت، فتوقفت عن النمو وأخذت تتراجع، إذا سلمنا بما مر، إذن فالذين يحاولون إبقاء لغتنا العربية على ما كانت عليه في ألفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها، لا يسمحوةن بزيادتها بوجه من الوجوه، لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق، هؤلاء ينادون علينا بأن اللغة العربية قد ماتت أو شاخت. وإن أنكروا ذلك وسلموا، كما هو الواقع، بأن العربية لغة حية، نامية، فعدم رضاهم بزيادة مفرداتها، لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق، تصريح واضح بأنهم يسعون بكل مكانتهم الى إماتتها، ولا نعلم أذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة، أم من بغضهم لها، والمرجح عندي أن ذلك من شدة حبهم لها، ولكنه الحب مع الجهل: وإن قليل الحب بالعقل صالح.

وإن كثير الحب بالجهل فاسد. ويضيف قائلاً: "دعونا نوجه خواطرنا الى مشهد آخر من مشاهد محبي العربية. من جملة هؤلاء المحبين من يعترفون بألسنتهم أنهم لا يرون بائساً بزيادة مفردات العربية، بالاستعارة تارة وبالاشتقاق أخرى فيأذنون بزيادة "تلغراف" و"أوتومبيل" مثلاً، وبزيادة "ابرق" و"مغنط". ولكنهم لا يتسامحون لأحد أن يقول كما قال الحريري: "واستعنت بقاطبة الكتاب و"يجيزون له أن يقول: "استعنت بالكتاب قاطبة".

"فيا لله إذن من كثيرين، ممن يدعون حب هذه اللغة، ولكنهم يحظرون على العقل أن يزورها في الأحايين، حتى ولو كانت زيارته إلماماً وإطلالاً من باب دارها الخارجي. ولطالما كان قبل عهدهم، في أيام الجاهلية وصدر الإسلام، يزورها غير معارض فيدخل كل مخدع من مخادع مشتقاتها، وكل عطفة من عطفات قياسها. يأمر "وينهي ما يقتضي، لا يضيق عليه ولا يُصنف"..

مشعل اللغة

إن المشعل الذي أضاءه جبر ضومط في البحث اللغوي، وحمله طيلة حياته قد انطفأ صاحبه عام 1930. ولم يقم بعده من علماء اللغة، من سار على المنهج الذي اختطه المعلم جبر في البحث والتنقيب والتأليف لإغناء هذه اللغة، بل اكتفوا بمضغ ما وضعه الأقدمون من قواعد وأقوال ثم يرجعونها إلينا بأشكال جديدة.

صرخة من أعماق الوجدان

ومن مقالاته التوجيهية التي كان ينفح بها مجلة "الهلال" تلك التي كان عنوانها. "الزراعة والصناعة في لبنان وسوريا"، وهي صرخة من أعماق الوجدان الوطني عنده، لاستثمار الأرض. هي دعوة مخلصة ومريحة وجهها أسلوب خطابي وشعري الى اللبنانيين السوريين يحرضهم فيها للعودة الى الطبيعة والتعامل معها، لنسمعه يقول:

"سهولنا واسعة، ومزارعنا خصبة، ومياهنا في بعض الجهات كثيرة، ولكن أين غلاتنا؟ أين الحبوب التي كان ينبغي أن تكون مركومة مثل التلال في مزارعنا وقرانا ـ وتصدر في سفننا من ثغورنا الى مدن أوروبا وبنادرها؟ ـ أم أين أقطاعنا التي تملأ بيوت زراعيها وتفيض فتملأ المستودعات الكبيرة والمخازن الواسعة في مدننا فيصدرها تجارنا وترد علينا أثمانها ذهباً وهاجاً.

ـ وأسفاه! ـ ليس شيء من ذلك! ـ أما القطن، فاطن الشبان، ومن هم في أول سن الكهولة من زراعنا لا يعرفونه إلا محشواً في فراش أحدهم أو لحافه. أما كيف يُزرع ويُجنى ويُحلج ويُغزل، ثم يحاك خاماً، كان يضرب المثل بمتانته فذلك مما يسمعونه عن آبائهم، ونقلاً عن المتقدمين سناً بينهم".

وأما الحبوب فيسؤوني جداً أن أقول على مسمع منكم، أن كثيراً من مخازن الحنطة في بيروت ملآن منها، لكن من غير سهول حمص وحماه والشام وحوران.

ويضيف جبر ولسانه يتلعثم في فمه حزناً وأسفاً "إذا ما ذكرت لكم ما أراه وترونه أنتم كل يوم ن مركبات تحمل الخبز الى كثير من البيوت من أفران تجلب دقيقها من فرنسا وغيرها، وفي كل يوم يزيد عدد الموزع عليهم من هذه الأفران.

مع الصناعة الوطنية

وبالقدر الذي تأسف فيه على الحالة الزراعية في بلادنا، تأسف كذلك على الحالة الصناعية فيقول:

"أدخلوا الى بيوتنا في المدن والضياع وانظروا، ماذا ترون؟ ـ ترون أثاثنا وأدوات طعامنا وشرابنا، وأنواع زيتنا أغلبها إن لم أقل كلها من المصنوعات الأجنبية. ويا للأسف ! ـ حتى الزيوت والمكبوسات من البصل والخيار وأشباه ذلك، ولا أقول المشروبات، ترد إلينا في قناني من البلاد الأجنبية، ونفاخر بها لأنها من صنع بلاد أجنبية!

استوقفنا رجالنا وشبابنا هنيهة، وانظروا الى ملابسهم، من أسفل القدم الى قمة الرأس، فإنكم ترون الأحذية من صناعة أجنبية، والطرابيش كذلك، وما بينهما من القميص الذي يباشر الجلد، الى المنديل في الجيب، كل ذلك من بلاد أجنبية وصناعة أجنبية، ويا للعجب! إن القمصان وربط الرقاب يستخف بها إذا كانت مصنوعة بأيدي صناعنا، ويفاخر بها لمجرد كونها مصنوعة في لندن أو باريس. وأعجب من ذلك، وأنه لعجب يستوجب البكاء.

أمور يضحك الجهال منها ويبكي من عواقبها الحكيم.

ويختم جبر صرته المدوية بدعوة شباب بلادنا ورجالها، وسيداتها الى تشجيع الصناعة الوطنية فيقول:

"يا شبان بلادنا، ويا رجالها! لماذا لا نلبس الأنسجة التي حاكها صناعنا في بلادنا، على أنوال دمشق وبيروت وحمص وحماه والزوق؟ ـ ويا سيدات بلادنا! لماذا لا تلبس الحرائر المنسوجة على هذه الأنوال، وتباهين كما تباهي الغربيات بمنسوجات نسجها صناعنا، وخاطتها الخاطة من بيننا؟".

هذه الصرخة التي أطلقها المعلم جبر ضومط منذ أكثر من مئة سنة، هل تلاقي اليوم أذناً صاغية بعد أن تدهورت حالة البلاد الاقتصادية ووصلت الى ما وصلت إليه؟

ومع المدرسة الوطنية

وكما دعا الى تشجيع الصناعة الوطنية والإنتاج الوطني، دعا كذلك الى تشجيع المدرسة الوطنية ـ علماً أنه أمضى أكثر من نصف قرن وهو يعلّم في المدارس الأجنبية ـ لأنه يدرك أن كل دعوة لأي اتجاه أو حركة لا تؤتى ثمارها ما لم تنطلق من المدرسة الوطنية.

لم يذكر أحد أن المعلم جبر ضومط نظم الشعر، باستثناء بعض القصائد التي قالها في صباه، والتي لا تشكل أي قيمة في ميزان الشعر، ولكنه كان يتذوق الشعر ويحفظ الجيد منه. وكثيراً ماكان يردد أبيات المتنبي ويغرق في تفسيرها وتحليلها، الى درجة أنه كان يكسبها معاني لم تخطر على بال المتنبي نفسه.

وفاته

توفي المعلم جبر ضومط في التاسع عشر من كانون الثاني من العام 1930 فأقيمت له حفلات التأبين في مختلف الأقطار العربية وفي المهاجر. وقد رثاه بالمناسبة الشاعر العراقي معروف الرصافي بقصيدة نقتطف منها هذه الأبيات:

بكلى الفضل لما ان قضى نحبه جبر

وليس لكسر الموت في طبنا جبر

على اللغة الفصحى أياديه جمة

وآثاره في نشر آدابها غرُ

وما كان بيدي الرأي فيها مقلدا

ولكن له الإبداع والفكرة البكر

وما كان في استقرائه العلم جامدا

ولكنه في العلم كان له فكر

يشق حجاب المشكلات برأيه

كما شق برد الليل مذ مطلع الفجرُ

مؤلفات جبر ضومط

1 ـ الخواطر في اللغة ـ بيروت المطبعة الأدبية 1886.

2 ـ الخواطر الحسان في المعاني والبيان 1896.

3 ـ الخواطر العراب في النحو والإعراب ـ بيروت المطبعة الأدبية 1904.

4 ـ فلسفة البلاغة ـ بعبدا ـ المطبعة العثمانية 1898.

5 ـ رسالة في النسبة ـ بيروت مطبعة الوفاء 1931.

6 ـ سفر التكوين (بحث نظري فلسفي) بيروت ـ مطابع قوزما 1929.

7 ـ فلسفة اللغة العربية وتطورها ـ (مطبعة اللغة العربية وتطورها ـ (مطبعة المقتطف والمقطم 1929).

8 ـ اللغة العربية (بحث تاريخي فلسفي ـ بيروت المطبعة الأدبية 1912).

9 ـ فك التقليد في علم الصرف (بالاشتراك مع بولس الخولي) 1908.

ألبير خوري